الهرمسي سعيد عقل

الشاعر الشاهد على قرن ونيف



إبراهيم محمود

❑ ربما شكَّل الشاعر اللبناني، والرمز الأيقوني الشعري سعيد عقل" 1910–2014 "، أكثر من شاهد علىٰ قرن، ليس بمعنىٰ أنه عاش أكثر من قرن إثر رحيله هذا الصباح الجمعاوي، كما رحلت الشحرورة صباح صباح 27 تشرين الثاني 2014، وبين الصوت المغنيٰ والمطرب والشعر الأكثر من كونه شعراً، وإنما لأن الذي أودعه صوته الشعري الإسطرلابي، إن جاز التعبير، يكاد يتوقف عليه، بصفته فريد اسمه، واسم الراحل سعيد كان مختلفاً عليه أشد الإختلاف، بل يكاد الشاعر يستولد كماً وافراً من الكينونات الشعرية، في التقارب والتقريب بين لبنانية الشعر وعربيته، بين شفافيته الاستثنائية وعمقه الاستثنائي، بين رهانه علىٰ محليته الجغرافية "لبنانيته في اللغة المحكية: لغة قائمة بذاتها، من خلال دعواته، وما يبقي لبنان لبنانا"، وعلىٰ اللالبناني فيه بحدوده المعلومة رسمياً، أي في الانتثار الشعري العربي وانتشار مأثوره الجمالي وعلىٰ أعلىٰ مستوى، وليكون اللبناني المتشدد علىٰ لبنانيته المأهول بالآخر العربي الممتد من حوله براً وبحراً، سهلاً وجبلاً، وادياً وقمة طود، سهباً وصحراء، ثقافة ومعرفة وأدباً، من خلال انسكانه بالجغرافية العربية الباتعة، وفي رأس اللائحة الجغرافية المؤدَّاة شعراً "الشام" بوصفتها التي تشمل بلداناً، وما في ذلك من تجلّي المفهوم الحزبي "القومي السوري"، وكذلك السعودية وغيرها.

تبقىٰ الشام خميرة روح عقل، ولا بد أن الناظر في هذه الروح العقلية، أن يتلمس هذا الشغف الشامي النسَب، وهذا الشوق المتجدد الذي أبدع فيه طويلاً وكثيراً، إلىٰ جانب لبنان، وشغف لبنان طبعاً، وأخرجه الصوت الغاية في الرقة والنسيمية المهجّنة، صوت فيروز من الصمت الخصيب للكلمات، إلىٰ بلاغة الصوت الملحن، وجمالية البحّة الفيروزية المعمرة والتي كلما ذقت المتردد باسمها طلبت المزيد.

قرأت مجدك في قلبي وفي الكتب شام،
ما المجد؟ أنت المجد لم يغب

أو:

شام أهلوك إذا هم علىٰ نوب قلبي علىٰ
نوَب

أو:

شام أهلوك أحبابي وموعدنا أواخر
الصيف آن الكرْم يعتصر

أو:

نسمت من صوب سوريا الجنوب قلت
هل المشتهىٰ وافىٰ الحبيبُ

ولا بد أن الشام الجريحة والناهضة والتي تبحث عن ولادتها النارية " الفينيكسية " كعادتها، لا بد أنها تعيش رحيله وهي تحتضنه في الكثير والوفير مما خصها بالجهة الوارفة من روحه الشعرية.

وما قاله في "مكة":

غنّيت مكة أهلها الصيدا والعيد يملأ
أضلعي عيدا

وما قاله في المرأة الكثير الكثير، من خلال مجموعات شعرية (قصائد من دفترها- رندلىٰ- دلزى- أجراس الياسمين):

وقربك لي معبد لا يُمَس يزار ويلمَس
من شاسع

أو:

ألعينيك، تأنَّىٰ وخطر يفرش الضوء
علىٰ التل القمر؟

في الرحيل الأبدي للشاعر المختلَف عليه جداً سعيد، سعيد عقل ، وعقل سعيد الخاص بالمقابل، من الصعب جداً مقاربته في بضع كلمات، وحياته أكثر من بضعة عوالم شعرية وفنية ومواقف وتصورات، ربما كان التجسيد الجغرافي والاجتماعي والتاريخي التليد لذات لبنان، كان جنون لبنان وعقله المتزن، كان وجهه المحافظ فيما أراد التشبث به، وهو المتشبث بروحه، وريادته في كل مشتهىٰ خيالي، كان ذلك الوضوح الذي يصل بمكاشفه إلىٰ درجة الهرمسية جرّاء انغوار العمق وتتويه الغائص في لجيّته.

في ذات سعيد عقل، تناوبتها سعادة لا تترجم إلىٰ كلمات، وهو الذي ارتحل مديداً إلىٰ عوالم جمالية وأرضية ليؤسس بمعنىٰ ما، لذاكرة جمال لا تُسبر، تضن بذخيرتها الإبداعية علىٰ غير أهلها، رغم أن التأسيس مضرَّة بمعنىٰ الشعر الذي هو أكثر من ملَكة، أكثر من جغرافيا مسماة، سعادة لا بد أن تستمر سعادة عصية علىٰ الامتلاك لتعاش في فورتها وحرقتها ونشوتها وينبوعيتها، وعقل، هو الآخر عايش سعيداً، واتخذه مثالاً، عقل، يمكن سرد الكثير من مناورات القول، والتفافات التفسير والمقاربات النقدية، وصيغ التشهير منه، سوى أن ذلك لا يبطل فيه حربه الضروس والمشتهاة، باعتبارها المرجع الذي يتقدمنا، إن حاولنا مكاشفة ما هو شعري، وما يبقي الشاعر أكثر من كونه ربيب فن لفن، لأن لبنان البلد والأهل والحضارة، والمتوسط الفينيقي والمتلاحم السوري، والأنثىٰ الأكثر من كونها مسماة باسم لغوي محدد، وإن مُدَّت بحضور لبناني وما يتجاوز حدود لبنان المائية البرية والبحرية والجوية، لأن لبنان هذا لا يتنازل عن شاعر رفض التنازل عنه، وإن احتفظ بعراقة نفاثات وجد له خارجاً شامياً وأكثر من ذلك.

ربما كان سعيد عقل مفارقنا منذ أكثر من عقد، من خلال ما أتىٰ به، ولكن استمراره حياً كان يشغل نفوس من حوله ورؤوسهم، كان الذي أتىٰ به يمارس نقلاته في الجهات الأربع من حوله، عبر أسئلة تعني الشعر وما يكون "ومَن يكون"، تعني الوطن وما يكون "ومن يكون"، تعني الإنسان، ومن يكون "وما يكون"، أسئلة سعيد عقل الشاعر الذي ستوضع عنه كتب أو مؤلفات، وسيُرتحل إليه كثيراً.

ليس المهم، أن نقول من هو سعيد عقل، فالذي نيل باسمه إبداعاً وحداثة تكوين شعرية وفنية وجمالية، هو أن نسأل ونسائل أنفسنا: من نكون بالنسبة إليه، وفي الحالة الثانية، يكون الراحل القرني ونيف، كينونة مؤمَّمة، كما أنها بيت قصيد كل من يريد تعلم الإبداع، وقد استحال مرايا مركَّبة تختبر وجوهنا بصيغ شتىٰ.

* كاتب من سوريا مقيم في دهوك



* بريشة جمال الجراح

> تبقى الشام خميرة روح عقل، ولا بد أن الناظر في هذه الروح العقلية، أن يتلمس هذا الشغف الشامي النسِب، وهذا الشوق المتجدد الذي أبدع فيه طويلا وكثيراً

السوري الأكثر لبنانية من اللبنانيين

مفيد نجم

❑ بعد رحلة طويلة وثرية مع الشعر ترجل أخيرا سعيدعقل عن صهوة الشعر، فكان آخر رواد الكلاسيكية الجديدة في الشعر العربي الحديث، الذين يطوون برحليهم الصفحة الأخيرة والأهم في تاريخ هذه الحركة، وأهم الآباء الروحيين للنزعة الفنيقية والقومية اللبنانية، التي حاول أن يذهب بدلالاتها إلىٰ أقصىٰ درجات الوجد والتصوف، ما جعله يمثل أكثر دعاتها والمنظرين الأيديولوجيين لها تطرفا ومغالاة، كما تجلىٰ ذلك في أبوته الروحية لحزب حراس الأرز الذي لعب دورا خطيرا في الحرب اللبنانية، إضافة إلىٰ دعوته إلىٰ استبدال اللغة العربية الفصحىٰ باللغة اللبنانية المحكية، التي كتب قصائد ديوان الخماسيات بها، ليعود في ديوان خماسيات الصبا إلىٰ كتابة قصائده باللغة العربية الفصحىٰ ثانية.

> لقد طوى الموت مع رحيل عقل حقبة هامة من تاريخ الشعرية العربية والفكر الانعزالي اللبناني الذي طالما عمل على تأطيره فكريا وتاريخيا

الصانع الماهر

ينتمي عقل في أصوله إلىٰ أسرة سورية هاجرت من قرية في جنوب سوريا إلىٰ مدينة زحلة، التي ولد فيها عام 1912، ونشأ مفتونا بسحر طبيعتها وجمالها. انشغل منذ مرحلة مبكرة بصورة أساسية بالمعرفة والعلم والفن والفلسفة، بينما شكل اللاهوت المسيحي إلىٰ جانب التراث الفنيقي أحد أهم عوامل التأثير في فكره ومواقفه وشعره. تأثر بالاتجاه الرمزي في الشعر الفرنسي، لا سيما عند الشاعر الفرنسي بول فاليري، وكان أهم الشعراء الذين أدخلوا الرمزية إلىٰ الشعر العربي. عمل في مجالي التعليم والصحافة، لكن الشعر ظل الميدان الأرحب الذي انطلق فيه بشعره محاولا أن يعيد للشعر قوته وجماله وسحر قوافيه، حتىٰ اعتبر أحد الأعمدة الأساسية للقصيدة التقليدية، التي اكتسبت روحا جديدة تجعلها أكثر استلهاما وتمثلا لروح الحياة الجديدة. درس ودرَّس تاريخ الفكر اللبناني واللاهوت المسيحي الذي تعمق فيه كثيرا حتىٰ أصبح مرجعا فيه، إلىٰ جانب دراسته لتاريخ الإسلام وفقهه حاول أن يبث خلاصتها الروحية والجمالية، في قصيدتي غنيت مكة وزهرة المدائن. لم يعترف عقل برمزيته لأنه اعتبر نفسه فوق الرمزية، بوصفه يمثل خلاصة لجميع مدارس الشعر في العالم. هذا الموقع المتقدم الذي احتله عقل في تاريخ القصيدة العمودية، جاء تجسيدا لما تميزت به قصيدته من بنية لغوية ومجازية قوية التركيب والصياغة تدل علىٰ صائغ ماهرعرف كيف يطوع اللغة ويقودها للتعبير عما يريد أن يقوله، وأن يعبر عنه، بعد أن ظلت الشام بما تمثله من معاني حضارية وتاريخية كبيرة في فكره وعقيدته قبلة هواه، وأيقونته الروحية، التي راح يتغنىٰ بمجدها وسحرها وتاريخها في قصائد كثيرة تعتبر من أفضل ما كتبه (قرأت مجدك- سائليني- شآم يا ذا السيف- بالغار كللت...) وقد زاد من روعتها وسحرها صوت المطربة الكبيرة فيروز التي غنت العديد من قصائده (يارا- بحبم ما بعرف- أمي يا ملاكي).

ظل عقل في مواقفه السياسية والشعرية موضع جدل كبير بين أنصار التقليد وأنصار الحداثة في الشعر، أو بين ذوي الاتجاهات القومية واليسارية والاتجاه اللبناني- الفنيقي، بسبب ما تميزت به مواقفه من تطرف ومغالاة حتىٰ في علاقته باللغة العربية التي اعتبر نفسه الربان الماهر، الذي يعرف كيف يقودها حيث يريد وكيفما يريد.

آمن بالشعر والجمال

عكس الراحل في تجربته الغنية تلك الروح الصافية والمبدعة التي طالما آمنت بالشعر والجمال، فرفعتهما إلىٰ مصاف عالية، حاولت من خلال تجربتها أن تتمثل روحهما الوثابة وخيالهما الجامح وسحرهما الذي عرف كيف يذهب بهما إلىٰ ينابيعهما الأولىٰ، لكي يعيد لهما روح الإبداع وكماله كما كان يقول دائما. لقد أخلص للشعر وأعطاه جل ما يستطيع من إحساس متدفق، ومن قوة وجزالة في القوافي والتعبير، وحضور راسخ جعلته أحد أهم رموز الكلاسيكية الجديدة، التي عملت علىٰ تطوير القصيدة العمودية من داخل بنيتها التي أراد لها أن تتجدد لكي تثبت قدرتها علىٰ الحياة والتجدد، وأنها لم تستنفد طاقتها الإبداعية والجمالية. غنىٰ للمرأة والجمال بعذوبة صافية، ولم تعرف قصائده لغة الحزن والبكاء. وهكذا خاض عقل معاركه الأدبية بقوة مدعوما بموهبة كبيرة وطاقة خلاقة علىٰ الإبداع، بينما كانت معاركه السياسية هي الأكثر عرضة للهجوم والإدانة سواء فيما يتعلق بفنيقيته أو نزعته القومية اللبنانية المتطرفة، أو موقفه من الوجود الفلسطيني في لبنان، وتأييده للاجتياح الإسرائيلي عام 1982 بهدف القضاء علىٰ الثورة الفلسطينية.

لقد طوى الموت مع رحيل عقل حقبة هامة من تاريخ الشعرية العربية والفكر الانعزالي اللبناني الذي طالما عمل علىٰ تأطيره فكريا وتاريخيا، الأمرالذي يجعل أية كتابة عن سعيد عقل في هذه اللحظة الختامية من مسيرته الطويلة والحافلة التي استمرت مئة وعامين، لا بدّ أن تكون استحضارا لكل هذا التاريخ وهذه المواقف التي كان يؤمن بها ويدافع عنها بقوة وحماس، استطاع من خلال المكانة التي يمثلها أن تثيرالكثير من الجدل حولها وأن تجعل منه خصما للكثيرين من أصحاب الفكر السياسي أو فكر الحداثة، ورمزا لأصحاب الاتجاه القومي اللبناني، الذين نظروا للبنان كأنه واحة معزولة عن محيطها الحضاري العربي، وكأن الشام بتعبيرها الجغرافي المعروف لم تكن أيقونة الشرق كله.

* ناقد من سوريا مقيم في أبوظبي